التّناص الدّينيّ وتطبيقاته في (رسائل الإخوان) لمصطفى صادق الرّافعيّ

Religious intertextuality and its applications in (Letters of the Brotherhood) by Mustafa Sadiq al-Rafi'i

د. مهدان ليلى*

تاريخ الاستلام: 08-11-2020 تاريخ القبول: 13-09-2021

ملخّص: يعدّ التّناص أحد أهم مفاتيح النّصوص بمختلف مجالاتها ومحتوياتها وموضوعاتها التي لا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تنشأ دون أنساق لغويّة واستشهادات واقتباسات سابقة لها، فالحديث عن النّص إنّما هو حديث عن مجموعة مفردات متجانسة وعلاقات دلاليّة مكملة بعضها بعضا تركيبا وبنيّة تاركا وراءه مقولة انغلاقه، وتاركا المجال لثنائيّة الكتابة والقراءة، ذلك أنّ القارىء هو المنتج الفعلي له ومع ذلك فقد اتسع مفهوم التّناص ليضحى ظاهرة نقديّة جديدة تمتلك آليات وتقنيات حددها النّقاد والتي انتقينا منها ماجاء به محمّد بنيس الذي كشف فيها علاقة النّص الغائب بالحاضر، فما هي هذه الآليات؟ وكيف وظفها الرّافعي في رسائله؟ وهل لها أن تكشف للمتلقي مراميها؟

كلمات مفتاحيّة: التّناص، النّص، الامتصاص، الاجترار، الحوار، الاقتباس.

Abstract: Intertextuality is one of the most important keys to texts in its various fields, contents and topics, which cannot in any way arise without linguistic patterns, quotes and earlier quotes, so talking about the text is a conversation about a group of homogeneous vocabulary and semantic relationships that complement each other in structure and structure, leaving behind the saying of its closure, And leaving the room for the duality of writing and reading, because the reader is the actual product of it,

* جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، الجزائر، البريد الإلكتروني: mehaddeneleila@gmailcom (المؤلّف المرسل).

and yet the concept of intertextuality has expanded to become a new critical phenomenon that possesses mechanisms and techniques identified by the critics, from which we chose what Muhammad Bennis, who revealed the relationship of the absent text with the present, revealed the relationship of the absent text to the present, so what are these mechanisms?And how Al-Rafei employed her in his letters? Can she disclose to the recipient her goals?

Keywords: intertextuality; text; citation; dialogue;

.

1. مقدّمة: وجدت القراءة الغربيّة والعربيّة المعاصرة في النّص –شعرا كان أم نثرا– ميدانا خصبا لتطبيق آلياتها وأدواتها الإجرائيّة السّياقيّة والنّسقيّة معا، ليبقى النّص متفردا ذا أصالة وخصوصيّة لا تمنع عنه أية قراءة وأي تأويل، أثبت ما للخطاب من قدرة على التّجاوب مع التّوجهات النّقديّة المعاصرة، ليترك مبدأ التّنوع والتّعدد والتّداخل والتّضارب بين أبنيته اللغويّة المميزة له مفتوحا، وتوكيدا لهذا الطّرح وجب علينا أن نعرج على النّص أو الخطاب، إذ لا يمكن الخوض في قراءة أي مدونة دون معرفة سياقاته المنتجة له ونصوصه المتداخلة معه، بوصفها صورا تتكرر في جل النّصوص ذات المجال المعرفي الواحد، وهذا ما جعلنا نقف (على رسائل الاخوان) لمصطفى صادق الرّافعي لتقصي مكوناتها المعرفيّة واللغويّة وتتبع النّصوص الغائبة التي تعد سمة جوهريّة فيها، لا سيما النّصوص الدّينيّة قرآنا وحديثا.

الحديث عن تجربة المبدع الجماليّة أو الخطاب جملة عادة ما ينقسم إلى تجربة الابداع وتجربة التّلقي التي ترجع إلى خبرة المتلقي التّحاما للنص واختراقا لصوره الخطيّة، ومستوياته الصّوتيّة إبرازا للمواضيع المحددة للحدث، وإدراكا لمعاني الجمل والتّراكيب، وهو ما يعني أنّ النّص ينتج بفعل نصوص أخرى مشكلة نسيجا وتشكيلا لغويا مكتنزا ومتشبعا بخلفيات نصيّة عديدة ومتعددة، ولن يكون ذلك إلاّ إذا كان لديه رصيد معرفي وقراءات نوعت تجاربه الإبداعيّة التي انتقاها واختار منها ما يتناسب وجملة التّراكمات التي تفرض في نهاية المطاف خصوصيات فنيّة وجماليّة متداخلة مع نصوص غائبة متعالقة مع النّص الأصل ومتقاطعة معه، ولهذا عد النّتاص نظريّة من بين نظريات ما بعد الحداثة، عدت البنيويّة والسّيميائيّة حاضنة له على يد

باحثين غربيين أمثال جوليا كريستيفا، رولان بارت، جيرار جنيت، غير أنّ الملاحظ أنّهم لم يتفقوا على مصطلح واحد بما في ذلك النّقاد العرب وهو ما سيبينه المطلب الموالي.

2-مفهوم التّناص: ارتبط التّناص في أوّل ظهور لمصطلحه بمفهوم التّعالق والإنتاج، وإعادة التّوزيع من مبدأ الخطاب المتعدد الصّياغة والدّلالات مهملا القارىء باعتبار أنّ "النّص جهاز لساني يعيد توزيع نظام اللغة واضعا الحديث التّواصلي (المعلومات المباشرة) في علاقته مع ملفوظات مختلفة سابقة أو لاحقة أو متزامنة[1] (وائل بركات، 1996) غير أنّ ذلك لا يغنينا من أن نحدد مفهوم النّص والتّناص فقد حاولت القراءة الحديثة أنّ تقارب هذه الظّاهرة من خلال الوقوف على عدة مصطلحات كان لها الدّور الرّئيس في تبرير حضور نصوص غائبة اعتبرت أنّ اللغة وعناصرها من بين الأدوات التّعبيريّة التي جسد من خلالها المبدع هذه الظّاهرة.

لعلّ علاقة التّناص بمصطلح الحواريّة دلالة على " تقاطع النّصوص والملفوظات في النّص الرّوائي الواحد بالإضافة إلى بعض المصطلحات كتعدديّة الأصوات وتعدديّة اللغات التي تلتقي مع مفهوم الحواريّة عند النّظر إلى النّصوص" [2] (حميد لحميداني، د ت) وهو ما ينسجم مع ما طرحه منظر الرّواية الرّوسي ميخائيل باختين الذي يعود إليه الفضل في نشأة هذه الظّاهرة أو النّظريّة والتّأسيس لها، فاتساع النّص ليتخذ مستوى تداخل الدّلالات والسّياقات كان نتيجة البحث عن علاقته بنصوص أخرى، ومن هنا نخلص إلى أنّها متلازمة متلاحمة إلى درجة أنّه إذا فصل أحدها عن الآخر يضحى ضربا من ضروب تشويه العمل الأدبي، وهذا المبدأ يفضي إلى النّص أساسا الذي يعد فارقا "ينطوي على قابليته للدراسة علميا انطلاقا من الطّابع اللساني الذي ينبني وفقه في كل صورته الصّوتيّة الكاملة، وهو ما يفسح المجال للعلوم المختلفة أن تتعامل معه من الزّاويّة التي تعطيه يقينا علميا في تحقيق غاية علميّة محددة من وراء تحليل المادة اللغويّة المركبة لهذا النّص، ابتداء بالتّعرف على هويّة الزّمرة الدّمويّة للنص، ومن ثم معرفة قوانين وجوده التي اعتمدها وما يؤديه من وظائف وما يستند اليه من وسائل تبليغيّة"[3] (علي ملاحي، 2003) تنسج بطريقة تتناسب وكل قارىء له، إذ لا مناص من وظائفه التّواصليّة التّفاعليّة المتوالدّة والمنبثقة

من أحداث متنوعة ونصوص عديدة ومتعددة. تعدّ ظاهرة التّناص أو تداخل النّصوص أو التّفاعل النّصي مثلما اصطلح عليه بعض الدّارسين من الشّروط الضّروريّة لإنتاج النّص الذي يستند على المعرفة الشّاملة والواسعة بالنّسبة للمبدع وحتى المتلقي حتى يتسنى له تأويله، وعليه فهو لا يتحدد بزمان أو مكان يحده ويحد هذه المعرفة، وإنّما يعتمد على "قوة ذاكرة القارىء القرائيّة فالمبدع لا يشير إلى الجزء المنسوخ، وهذا يوجب على القارىء أن يتوقف متأملا من حيث دلالة أجزائه، وهذا أيضا يتطلب من القارىء التّأويل وما فوق التّأويل ليشكل هو نصا جديدا ويثبت به استمراريّة التّناص، وعدم الفكاك منها، فأصبح التّناص وسيلة أدبيّة وتقنيّة حديثة، تتطلب التّفاعل العميق مع النّصوص المستدعاة للإفادة منها" [4] (ظاهر محمّد الزّواهرة،2000) وعليه فالمبدع ليس إلا معيدا للمعرفة السّابقة، وهذا ما يتطلب حرصا ودقة من المتلقي حتى يوازن المعرفة التّاريخيّة والرّاهنة، فإذا كان الأمر كذلك والحالة هذه، نجد قضيّة التّناص بكل تراكماتها المعرفيّة المتنوعة ترتبط أساسا وجوهرا بحركيّة النّص وتغير حيثياته بكل مكوناته الفكريّة والجماليّة، وتقاطعه مع النّصوص السّابقة تقاطع مع الوقت ذاته، وعليه وجدنا كثيرا من الباحثين والنّقاد قد ألحقت حقيقته بمصطلحات كثيرة، وراحت توازن بين الجانب الفكري والمعرفي والتّعامل المباشر بحركيّة الواقع والنّص معا. توقفت الدّراسات النّقديّة العربيّة الحديثة عند مصطلح التّناص نظريا وتطبيقيا، فقد اتضحت معالمه لدى محمّد بنيس الذي أطلق عليه مصطلح "النّص الغائب" الذي "تعيد النّصوص كتابته وقراءته أي مجموعة النّصوص المستترة التي يحتويها النّص الحاضر وتعمل بشكل باطني عضوي على تحقق هذا النّص وتشكل دلالتّه" [5](محمّد بنيس،1979) باعتباره أنّ النّص تشكيل لغوي وبنيّة غير منفصلة عن النّصوص الأخرى يختلط فيها "الحديث بالقديم، والعلمي بالأدبي، واليومي بالخاص والذّاتي بالموضوعي" [6](محمّد بنيس،1979). وإذا عدنا إلى صياغة المصطلح لدى الغذامي وجدناه استخدمه تحت ما يسمى بتداخل النّصوص الذي لا يمكن إطلاقا سبر أغوار نصّ ما بمعزل عن النّصوص الأخرى كونه تشكيلا مركبا ليميزه قائلا "ولئن كان مفهوم جسديّة النّص وكونه كائنا حيا ومركبا هو لب الفكرة فيما قلناه ونقوله عن نصوصيّة النّص، فإنّ هذه الجسديّة لا تقوم على عزل النّص عن سياقاته الأدبيّة والذّهنيّة، وذلك لأنّ العمل الأدبي يدخل

في شجرة نسب عريقة وممتدة تماما مثل الكائن البشري، فهو لا يأتي من فراغ كما أنّه لا يفضي إلى فراغ، إنّه إنتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي، وهو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه" [7] (عبد الله الغذامي، 1993) فقد أورد الغذامي تحديدا للنص جعله منبعا لغويا وحدثا تواصليا تفاعليا مفتوحا على وحدات لغويّة سابقة متسقة منسجمة تفضي به إلى أنظمة لغويّة لاحقة. نخلص إلى أنّ المصطلح يتواتر عند النّقاد والدّارسين، غير أنّه وعلى خلاف صياغاته المتنوعة يثير محمّد مفتاح وجها آخر من الاختلاف في اصطلاحه، فأطلق عليه مصطلح " التّعالق النّصي" قائلا " تعالق (الدّخول في علاقة) نصوص مع نصّ حدث بكيفيات مختلفة"[8](محمّد مفتاح، 1992) محددا آليتي الإيجاز والتّمطيط التي تكشف علاقته مع النّصوص السّابقة له والمزامنة له، قراءة لها وتأويلا لمعطياتها فضمن هذا الالتّباس في وضع هذا الحشد من المصطلحات المتقاربة، فإنّ محمّد مفتاح سعى لوضع مصطلحه مرجحا أنّ إنتاج "أي نص هو رؤيّة صاحبه للعالم وهذه المعرفة هي ركيزة تأويل النّص من قبل المتلقي..فالتّناص حدث لغوي يتولد من أحداث تاريخيّة ونفسانيّة ولغويّة...تتناسل فيه أحداث لغويّة لاحقة به، لذلك أصبح هذا المصطلح شفرة نقديّة لتحليل الخطاب الأدبي، بل يمثل نظرة الشّعريّة الحديثة التي تنظر إلى النّص على أنّه جيولوجيا معرفيّة ترقد في صمته الوهمي العديد من العلوم والفنون والتّخصصات"[9] (محمّد مفتاح، 1992) فهو قبل كل شيء تعبير يخلق جماليّة في نفس المتلقي إدراكا لأبعاده الجماليّة والمعرفيّة والدّلاليّة، واكتشاف علاقة النّص والنّصوص المستدعاة فيه.

3-**مظاهر التّناص وأشكاله في رسائل الأحزان:** تختلف المتون الرّوائيّة والشّعريّة لغة وأسلوبا وذلك لاعتماد المبدع طرق كتابة وعوالم خياليّة وواقعيّة تتنوع من نصّ لآخر، كما تتنوع طرق تعامله مع النّصوص والتّجارب السّابقة التي تستوجب قارئا ذكيا يفك رموزها ويكشف علاقاتها مع ما سبقها، حيث تختلف أشكال التّناص وأنواعه في (رسائل الأحزان)، الأمر الذي تطلب منا إحصاءها وفق أنماط حددها النّقاد، فاستوقفتنا تقنيات التّناص لدى محمّد بنيس التي استطرد فيها كثيرا واضعا حدودها وتحولاتها، ما يجعلنا نستخلص أنّ آليّة التّناص تتحدد من مفهومين

"الاستدعاء والتّحويل، أي أنّ النّص الأدبي لا يتم إبداعه من خلال رؤيّة الكاتب أو الفنّان بل تتم ولادته وتكونه من خلال نصوص أدبيّة أخرى، ممّا يجعل التّناص يشكل من مجموع استدعاءات خارجيّة نصيّة" [10](مي نايف، 2002) تتلاحم لتكون نصًّا جديدا ذا دلالات جديدة لاغيا الحدود بين الأدب والفنون الأخرى، محاكاة أو تقليدا أو تحويلا أو معارضة أو حتى اجترارا أو محاورة، مقصيا بذلك مفهوم القراءة الأحاديّة جراء تقاطع الألفاظ والمقاطع والسّياقات وتشاكلها. ينطلق القارىء من مقولة لو لم يتشابك النّص مع نصوص سابقة له غائبة، لما كان له أن يفهم، فمن هذا المنطلق حدد محمّد بنيس آليات للتناص بعدما أطلق عليه "مصطلح النّص الغائب بصفة خاصّة أو مصطلح هجرة النّص والتّداخل النّصي والنّص الأثر والنّص الصّدى بصفة عامّة" [11](رابح بن خويا، 2013) وقوفا على حقيقة التّفاعل بين النّص الغائب والنّص الحاضر، وكيفيّة استدعاء أو تمثل نص سابق لنص لاحق، يعتبر في كثير من الأحيان قراءة جديدة أو مستحدثة لآخر سابق.

حدد بنيس آليات التّناص كالآتي:

3-1-الاجترار: يقصد به تكرار نص سابق أو غائب دون تحوير أو تغيير ويرجع ذلك إمّا لتقديس واحترام هذا النّص، وإمّا تقصيرا وضعفا لقدرة الكاتب الإبداعيّة، وعليه يقوم باجترار هذا النّص بشكل جامد لا حياة فيه، فقد ساد هذا النّمط في "عهد الانحطاط حيث تعامل الشّعراء في تلك الفترة مع النّصوص الغائبة بوعي سكوني خال من التّوهج وروح الابداع، وبذلك ساد تمجيد بعض المظاهر الشّكليّة الخارجيّة في انفصالها عن البنيّة العاملة للنص كحركة وسيرورة، وكانت نتيجة أن أصبح النّص الغائب نموذجا جامدا تضمحل حيويته مع كل إعادة كتابة له" [12] (محمّد بنيس، 1979) وعلى الرّغم من ذلك نعتبره محاورة لنصين وقعت قبل وأثناء كتابة المبدع الذي لا يكتب انطلاقا من عدم، ففي خضم هذا التّشاكل والتّداخل تتشكل ملكته وتصقل موهبته وتتوسع معرفته بالثّقافة الإنسانيّة.

3-2-الامتصاص: يقوم المبدع من خلاله باستدعاء واستحضار النّص الغائب حتى وإن لو لم يكن جليا ظاهرا، ما يمثل قمة الابداع بما يتناسب ورؤيّة المبدع الخاصّة التي يبدع فيها ويجدد بما لم يعرفه النّص السّابق في مراحل كتابته، وعليه فالتّناص الامتصاصي يمثل "مرحلة أعلى لقراءة النّص الغائب وهو القانون الذي

ينطلق أساسا من الإقرار بأهميّة النّص وقداسته" [13](محمّد بنيس، 1979) التي لم تمح، بل عمل على إحيائها وفق نظرته الحداثيّة التي يستطيع القارىء النّموذجي اكتشافها من وراء السّطور واللغة والذّوق والفكر.

3-3-الحوار:

2. يعتبر الحوار أرقى مستويات التّناص التي تكسب القارىء نظرة تأويليّة حصيفة ناقدة للنص الغائب، إذ لا مجال فيه للتقديس والاحياء بل يعمل فيه الأديب على " النّقد المؤسّس على أرضيّة صلبة تحطم مظاهر الاستلاب مهما كان نوعه وحجمه وشكله" [14](محمّد بنيس، 1979) فهو يملي عليه روافد نقديّة معرفيّة يتفاعل فيها الماضي والحاضر والمستقبل.

3. يعدّ التّراث الدّيني مصدرا ثريا وخصبا من مظاهر الابداع شعرا ونثرا يغترف منه الأدباء موضوعات وصورا أدبيّة ويتقمصون شخصيات دينيّة من شأنها التّعبير عن أفكاره ورؤاه ومنطلقاته الفكريّة والمعرفيّة، ويعيدون بناء النّص الغائب وفق رؤيّة حداثيّة، ذلك أنّ "المعطيات الدّينيّة تشبع الانسان وترضي رغبته في المعرفة، بما قدمت من تصورات لنشأة الكون وتفسير سحري لظواهره المتنوعة" [15] (عاطف جودة نصر، 1987) كما تتطلب منه أن يكون قارئا غير عادي للبحث بين ثنايا السّطور ولعلّنا من خلال قراءتنا المتواضعة نذكر بعض الأمثلة الواردة في (رسائل الأخوان) لمصطفى صادق الرّافعي، التي يتمثل فيها الدّلالات اللغويّة ويعيد صياغتها وتوزيعها في النّص الحاضر، أو يقوم بتكرارها دون تحوير من القرآن الكريم، وهو ما ورد على سبيل الذّكر في رسالتّه الأولى التي يخاطب فيها صديقه وينبهه إلى ويلات الحب وانعكاساته ليصور لنا ثنائيّة ضديّة بين رقة الرّوح وبغض الجسد المتألم قائلا "مهما يبلغ الألم في عذاب انسان، فلن يجاوز حالة معينة، ثم يغمى على المتألم ويستريح ولو دقت في عظامه المسامير، كالماء مهما توقد عليه فلن يعدو درجة معروفة في غليانه، ثم يثبت عندها ولو أضرمت عليه من النّار التي وقودها النّاس والحجارة غير أنّ ألم الحب الشّديد حين يكرهك على بغضه نوع منفرد في كل آلام بني آدم كانفراد "ذئب الدّم" في جميع ما خلق الله من المعاني الوحشيّة" [16](مصطفى صادق الرّافعي 2012). أبدع الرّافعي في وصف الجمال والحب الذي حوله من انسان عاشق لكل

ما من حوله إلى ناقم على نفسه وعلى الحياة، وعلى صروف الدّهر فيه، مخاطبا فيها صديقه الذي لم يره منذ مدة من الزّمن يبثه شكواه، إذ نجده في ذلك يتناص مع قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(24)**﴾[17](سورة البقرة، الآية 24) وهو ما يعد تناصا اجترارياً استحضر فيه النّص الغائب تقديسا للمرجعيّة الدّينيّة حين اجتلب عبارة (النّار التي وقودها النّاس والحجارة) دون تغيير في اللفظ أو المعنى الذي وصفت به نار جهنم تلفحه مثلما تلفح قلبه المملوء بالآلام والأوجاع والحب والأشواق. يتناص الرّافعي في موضع آخر من رسالتّه الأولى التي تظهر في الوهلة الأولى أنّها موجهة لصديقه، غير أنّه في حقيقة الأمر لا وجود لصديق ولا لرسائل، فقد كان " يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله...جعل شيئا مكان شيء فأنشأ هذه الرّسائل لصاحبته، ثم نشرها كتابا تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه، أو ما يظن هو أنّها لم تكن تعلمه، فهي رسائله إليها على أسلوب من كبرياء الحب تشقى ذات نفسه، ولا تنال من كبريائه"[18](محمّد سعيد العريان، 1955) وعنفوانه وفي هذا دلالة واضحة على ماجاء في رسالتّه التي حاول أن يستحضر فيها نصًّا قرآنيا تفاعل معه لفظيا من خلال مفردات سورة الزّلزلة فقال " سأكتب أشياء وأضمر على أخرى لا أبوح بها، ومادام لكل امرىء باطن لا يشركه فيه إلاّ الغيب وحده، ففي كل انسان تعرفه انسان لا تعرفه، وليست على المعاني والخواطر سمات تميز بعضها من بعض كبياض الأبيض وسواد الأسود، فأنا وحدي أعرف سبب الزّلزلة التي أصنفها، والنّاس بعد كأولئك الخياليين القدماء الذين كانوا يقولون متى اهتزت أثقال الأرض" [19](محمّد سعيد العريان، 1955) فالحب عنده لم يصبح موضع تفكير وفلسفة وجود إلاّ بعد أن تمثله عبر وقائعه وحوادثه وحالتّه النّفسيّة، فحار في توضيح كنهه التي نأى بها عن الخيال حين ابتعد عن محبوبه، ما كان حافزا له على تفهمه واكتشاف أسراره، شأنه في ذلك شأن الأرض التي تبعث أثقالها من باطنها ما يرد في سورة الزّلزلة بعد قوله تعالى "إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها" والمراد بها "أصحاب القبور فإنّه إذا نفخ في الصّور فصعق من في السّماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، يخرجون من قبورهم لرب العالمين عزّ وجلّ" [20] (محمّد بن صالح العثيمين، د ت) فقد تفاعل الرّافعي مع النّص القرآني تفاعلا

تقليديا حتى وإن لم يكن جليا من خلال عبارات بعينها، ولكنّه فتح بعدا تجريديا عميقا مع المتلقي الذي يحاول جاهدا ربط لغة التّعبير الرّمزي التي جاءت في الرّسالة وبين مشاعر الرّافعي أو حتى مشاعر قارىء رسائله. تفاوتت آليات توظيف الرّافعي للتناص الدّيني ليعيد كتابته ويستحضره في نصوصه وفق تراوحت بين الاجترار والتّكرار والامتصاص الذي بدا بشكل واضح من خلال ورود كلمة الجنّة في قول الرّافعي "لم أر وصفا كهذا أفظع ولا أبعث على الرّعب، لأنّه إنّما هو موصوفه ...فسأخفف عليك فيما يلي هذه الرّسالة، ولا أذكر لك ثمت إلاّ ما يكون كوصف الجنّة، تزخرفت له ما بين خوافق السّماوات والأرض، ولكن دعني أقل لك إنّي أبغض من أحبها، على أنّك لو رأيتها لرأيت نفسها تلوح في وجهها، جميلة كجماله، رقيقة كرقته، محبوبة كحبه، ولكنّي مع ذلك أبغضها" [21](محمّد بن صالح العثيمين، د ت).

استحضر الرّافعي الجنّة في حديثه لصديقه التي قام بوصفها وصفا مقتضبا موجزا يختصر جمالها وما فيها وهو بذلك يتناص مع ما وقع من الدّلالة المعجميّة مع الحديث النّبوي الشّريف الذي صدر عنه أثناء عمليّة إنتاج النّص، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ أوّل زمرة تدخل الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درّي في السّماء إضاءة" [22](الجامع بين الصّحيحين للإمامين البخاري ومسلم، 2011). وعن سهل بن سعد السّاعدي قال: شهدت من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مجبسا وصف فيه الجنّة. حتى انتهى. ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في آخر حديثه: (فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) ثم اقترأ هذه الآية﴿ **تتجَافَى جُنُوبُهم عنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبّهُم خَوْفًا وَطَمَعًا ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُون*فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون**﴾السّجدة. الآية 16-17" [23](الجامع بين الصّحيحين للإمامين البخاري ومسلم، 2011). فرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصفها على أنّه فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، هي النّور والرّيحانة والقصور المشيدة محفزا مرغبا المسلم للفوز المبين بها ونيل ثواب الله عزّ وجلّ، كما يتواجد بها الزّوجة الحسناء والحور العين المطهرة، وهو ما يحدث مفارقة وثنائيّة ضديّة مع ما جاء في رسالة الرّافعي التي على الرّغم من جمال محبوبته، غير أنّه

يبغضها، هي رؤيّة معاصرة حداثيّة غير مباشرة أبدع في تصويرها، ذلك أنّه المغزى من التّناص الامتصاصي كونه أكثر تعقيدا وأكثر نضجا باعتبار أنّ النّص وفق التّناص " تعاقبي، متحرك، مفتوح، متغير، متجدد" [24] (شكري الماضي، 1993) وبهذه المفاهيم والخصائص يمكننا تفسير تغير مضمون النّص الدّيني من مرجعيّة تراثيّة إلى أخرى تتناسب ومواقف الأديب المعاصرة. بلغ التّناص أرقى مستوياته في رسائل الرّافعي، ولعلنا نحصي منه تناص الحوار الذي يدفع المتلقي إلى التّحليل النّقدي البناء، فقد عكس معنى النّص المرجعي القرآني أين أثار قضيتين مهمتين في المثال الوارد قائلا "والكبرياء كانت من شرها أوّل ما تمرّد به الشّيطان على الله وأوّل ما لعن الله به الشّيطان، وحسبها من الشّر أنّها ذهبت بجميع حسنات شيخ الملائكة (كان...)...وما برحت هذه الكبرياء ثقيلة على الأرواح الصّافيّة الكريمة ولو كانت ممن تحق له، ولو كانت من شجرة تحييها الشّمس ويقوم على حفظها ناموس الكون والمسيح لم يفر إلى ظلها من حر بل إلى ثمرها من جوع...قالتّ له: وهأناذه أخرى غير التي تريد" [25](مصطفى صادق الرّافعي، 2012). يبدو صراع الأفكار والقضايا جليا في هذا المقطع، فقد برزت حسب قراءتنا المتواضعة مسألة صراع الطّبقات الاجتماعيّة وتوتراتها في مجتمع تقاوم فيه كل طبقة عن وضعها الاجتماعي، وهو ما يشير إليه من خلال كبرياء المرأة وتغير أحوالها واختلاف علاقتها السّائدة مع الرّجل، كما لمح إلى المفهوم المادي لعلاقة الرّجل بالمرأة في مجتمع سادت فيه الانقسامات والرّذيلة وأضحت المرأة مومسا في نظره لدى فئة معينة من المجتمع، بعدما كانت آية من آيات الله في خلقه ونعمة من نعمه العظمى التي أنعم بها الله عزّ وجلّ على الرّجل، وعلى خلاف كل ذلك نلفي مسألة منزلة الرّجل والمرأة بعدما أجابته "هأناذه أخرى غير التي تريد" التي تدل على التّكبر والاستعلاء والغرور والأنانيّة والافتخار والاعتداد بالنّفس، ما جعله يمقتها ويبغضها وهو ما يتناص فيه مع قوله عزّ وجلّ في سورة الأعراف ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)**﴾ [26] (سورة الأعراف، الآية 11-12) وهو ما يفضي بنا إلى القول أن ما يسمى مساواة بين الرّجل والمرأة تحد قائم في عصرنا يشير يشير إلى أن تتمتع المرأة في جميع مراحل حياتها العمريّة بالحريّة التي

أباحها لها الشّرع، غير أنّ البعض يتطاولن وينقلبن إلى أنثى شرسة تتجرد من الرّومانسيّة والعواطف والرّقة والعذوبة والجمال الرّوحي والجسدي.

يحظى القرآن الكريم والنّصوص القرآنيّة بمنزلة عظيمة في نفوس المسلمين، كما شكلت السّنة النّبويّة وجهة لهم سعيا لتحقيق مصالح الدّين والدّنيا، فإذا كان القرآن حبل الله المتين الموصل لطريق الحق المبين، فقد لجأ إليه الأديب ودأب على توظيفه لما يختزله من المعاني والإيحاءات والأفكار على آليّة التّناص بمختلف أنواعه، إيمانا منه بأنّ حلوله وحلول أبناء أمته تكمن في اللجوء إلى مصادر الدّين وهو ما ورد في رسائل الإخوان لمصطفى صادق الرّافعي الذي عبر عن حالتّه الذّهنيّة والنّفسيّة من خلال علاقته مع محبوبته عن طريق الرّمز الدّيني مخاطبا صديقه وفق أسلوب تجريدي أسهم التّناص الدّيني في تقويّة نصوصه أو رسائله وتصوير أفكاره وتجليّة معانيه وفاعليّة علاقته مع البشر. تتنوع آليات التّناص وتقنياته لدى النّقاد ما جعلنا ننتقي أنواعه لدى محمّد بنيس التي تتناسب ورؤيّة الرّافعي الذي اقتبس النّصوص القرآنيّة اجترارا وتكرارا دون تحوير في بعض المواضع، كما امتص بعض النّصوص مستحضرا إياها ومكتشفا لمعاني حضاريّة لا تقتل النّص الغائب، بقدر ما يجدّد بما لم يعرفه النّص السّابق، إلى أن وصل إلى مرحلة أكثر نضجا من خلال تناص الحوار الذي يعتبر أرقى مستوياته من خلال استحضار هذه النّصوص وفق نظرة تأويليّة ناقدة حاصفة. تدوين الم ارجع يكون في آخر المقال وباعتماد أسلوب: وذلك بذكر صاحب المرجع والسّنة بين قوسين في قلب النّص (Brown, 2006)، على أن يدون المرجع كاملا في قائمة الم ارجع كالآتي:

- المؤلّفات: (المؤلّف) (عنوان الكتاب، النّاشر) مكان النّشر: النّاشر سنة النّشر(الصّفحة.
- المقالات: المؤلّف) (عنوان المقال، اسم المجلة، المجلد، العدد، السّنة، الصّفحة.
- المداخلات: (المؤلّف) (عنوان المداخلة، عنوان المؤتمر، تاريخ الانعقاد، الجامعة البلد.
- مواقع الانترنيت: اسم الكاتب (السّنة)، العنوان الكامل للملف، ذكر الموقع بالتّفصيل:

http://adresse complète (consulté le jour/mois/année).

الهوامش:

[1]– وائل بركات، (مفهوم في بنيّة النّص)، سوريا: دار سعد للطباعة والنّشر، د ط، 1996 ص 88.

[2]–حميد لحميداني، (التّناص وإنتاجيّة المعاني، علامات في النّقد والأدب)، مج 10، ج 4 ص 67.

[3]–علي ملاحي، (هذه تقاليدنا النّقديّة)، الجزائر، مجلة التّبيين، الجاحظيّة ع16، 2003 ص 114.

[4]– ظاهر محمّد الزّواهرة، (التّناص في الشّعر العربي المعاصر)، عمان: دار الحامد، ط1 2000، ص 36.

[5]–محمّد بنيس، (ظاهرة الشّعر المعاصر في المغرب، مقاربة بنيويّة تكوينيّة) بيروت: دار العودة، ط1، 1979، ص 251.

[6]– المرجع نفسه، ص 251.

[7]–عبد الله الغذامي، (ثقافة الأسئلة في مقالات النّقد والنّظريّة)، الكويت: دار سعاد الصّباح ط2، 1993، ص 111.

[8]–محمّد مفتاح، (تحليل الخطاب الشّعري (استراتيجيّة التّناص)، المغرب: المركز الثّقافي العربي، ط3، 1992، ص 121.

[9]– المرجع نفسه، ص ص 120–123.

[10]–مي نايف، (الخطيئة والتّكفير والخلاص الخطاب الشّعري عند الشّاعر محمّد حسيب القاضي، دراسة نصانيّة)، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، 2002 ص 226.

[11]–رابح بن خويا، (جماليات القصيدة الإسلاميّة المعاصرة، الصّورة، الرّمز التّناص)، إربد: عالم الكتاب الحديث للنشر والتّوزيع، ط1، 2013، ص 207.

[12]–محمّد بنيس، مرجع سابق، ص 253.

[13]–المرجع نفسه، ص 253.

[14]–م. نفسه، ص 253.

[15]–عاطف جودة نصر، (الرّمز الشّعري عند الصّوفيّة)، بيروت: دار الأندلس ودار الكندي ط1، 1987، ص 35.

[16]–مصطفى صادق الرّافعي، (رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب) القاهرة: مؤسّسة هنداوي للتعليم والثّقافة، 2012، ص 21.

[17]–سورة البقرة، الاية 24.

[18]–محمّد سعيد العريان، (حياة الرّافعي)، مصر: المكتبة التّجاريّة الكبرى، ط3 1955، ص 127.

[19]–مصطفى صادق الرّافعي، مصدر سابق، ص 19–20.

[20]–محمّد بن صالح العثيمين، (تفسير القرآن الكريم)، دار ابن الجوزي، مج 1 مؤسّسة الشّيخ محمّد بن صالح العثيمين الخيريّة، ص 284.

[21]–مصطفى صادق الرّافعي، مصدر سابق، ص 22.

[22]–الجامع بين الصّحيحين للإمامين البخاري ومسلم، جمع وترتيب صالح أحمد الشّامي دمشق: ج1، دار القلم، ط2، 2011، ص 102–103.

[23]–المصدر نفسه، ص 100.

[24]–شكري الماضي، (ما بعد البنيويّة، حول مفهوم التّناص)، دمشق: مجلة المعرفة السّوريّة وزارة الثّقافة، ع 353، 1993، ص 99.

[25]–مصطفى صادق الرّافعي، مصدر سابق، ص 39.

[26]–سورة الأعراف، الآية 11–12.